بهـــرام جـــور

فى التصوير الاسلامى

للدكتور محمـــد مصطفى

أمين مساعد دار الآثار العربية

هو بهرام الخامس بن يزدجرد المسالم أحد ملوك الدولة الساسانية المعروف « بهرام جور » ، حكم إيران بين سنتى ٤٢٠ و ٤٣٨ ميلادية . وقد استطاع بعدله وسخائه وفروسيته وشجاعته أن يصير محبباً إلى رعيته بعد أن كرهوا أباه « يزدجرد » الذى اضطهد المجوس فى سبيل تمكين المسيحيين من العبادة جهاراً فى بلاده . وقد هاجمه خاقان التركستان الصينية بجيش قوامه ١٢٥٫٠٠٠ رجل ، فاستطاع « بهرام جور » أن يصدّه بجيش من ١٠٫٠٠٠ رجل من خيرة محاربيه وأن يقتله بيده . وكان « بهرام » موفقاً فى سياسته ، فقد صالح الروم على شروط عادلة بعد أن هزموا جيشه ، وحث الناس على الزراعة وأعانهم عليها ، وكان يشجع العلماء والأدباء والفنانين والموسيقيين ويدعوهم إلى بلاطه من البلاد الأخرى ، حتى أنه استحضر ذات مرة من الهند ألفى موسيقى من الذكور والإناث وفرّقهم فى بلاده ليطربوا فقراء المزارعين دون أجر ، فتوالدوا فيما بينهم وصار منهم القوم المعروفون « بالنجر[1] » وانتشروا من « إيران » إلى البلاد الأخرى .

وقد كان « بهرام جور » فوق ذلك أديباً شاعراً ، تعلم الشعر فى صباه بين العرب فى الحيرة ، وقد بقيت هذه الذكرى فى الأدب الفارسى والعربى على السواء ، فالفرس يقولون إنه أول من قال الشعر وأنه أخذه عن العرب ، ويروون له أبياتاً فارسية ، والعرب يروون من شعره العربى والفارسى[2] .

وبقيت « لبهرام جور » ذكرى حسنة بين رعيته فاخترعوا له قصصاً تعبّر عن مكانته فى نفوسهم وتبيّن عن فروسيته وبطولته ومقدرته فى القنص والصيد . وصاروا يتناقلون هذه القصص جيلاً عن جيل حتى نظمها « الفردوسى » فى « الشاهنامه » حوالى سنة ٤٠٠ هجرية . ثم اتخذها الشاعر نظامى الكنجوى موضوعاً لإحدى منظوماته الخمس ، فنظمها مرة أخرى حوالى سنة ٥٩٦ هـ بعد أن ألبسها ثوباً جديداً من خياله وشاعريته

واستلهم الفنانون وقائع « بهرام جور » فى الصيد ومهارته فى الرمى بالنشاب فى رسم صورهم التفسيرية فى مخطوطات كتابى : « الشاهنامه » و « خمسهٔ نظامى » ؛ كما صوروها على الخزف والقاشانى وحفروها على الأوانى المعدنية ونسجوها فى الأقمشة ، وصارت هذه الوقائع موضوعات محببة إلى الفنانين فى جميع فروع الفن ، منتقلين بها من الفن الساسانى إلى الفن الإسلامى ، حتى وصلوا بها إلى العصر التركى

(شكل ١)

وترى[1] فى شكل (١) صينية من الفضة المذهبة عليها صورة « بهرام جور » يشج بسيفه رأس أسد ويمسك بيده اليسرى شبلاً صغيراً ، بينما هجمت عليه لبؤة تريد تمزيق رأس جواده . وهذه الصينية محفوظة فى متحف الأرميتاج بالروسيا ، وهى من القرن ٥ — ٧ الميلادى ، مما يدل على قدم هذا الموضوع الزخرفى فى « إيران » قبل انتقاله إلى الفن الإسلامى[2]

يقول الشاعر نظامى الكنجوى[3] فى منظومته « هفت

---

(١) وهم مشهورون بإجادتهم للموسيقى فى أوربا ، وخاصة فى بلاد المجر ، ويسمون بالانكليزية Gipsy وبالألمانية Zigeuner . أنظر أيضاً الشاهنامه للفردوسى ، طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام ج ٢ ص ١٠٥

(٢) أنظر حاشية الدكتور عبد الوهاب عزام فى الشاهنامة ج ٢ ص ٨٠ — ٨١ . وأيضاً ما كتبه الدكتور عزام فى نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية ص ١٥٦ . وراجع Franrz von Erdmann, Die Schöne vom Schlosse, Essen 1932. S. 5 —7

(١) الصور المعروضة هنا من تصوير الأستاذ محمد محمود سيد أحمد شلبى مصور دار الآثار العربية

(٢) هذه الصورة منقولة من كتاب Orbeli et Trever; Orfèvriere Sasanide, Moscou, 1935. pl. 10 أنظر أيضاً A Survey of Persian Art IV, Pl. 231 و Sarre, Die Kunst des alten Persien, Pl. 104

(٣) أنظر خمسهٔ نظامى ، طبعة طهران سنة ١٣٠٠ هجرية ص ٢٩٣ وما بعدها ، والترجمة الانكليزية لمنظومة « هفت پيكر » C. E. Wilson, The Haft-Paikar, London 1924, I, 37 f.

يَيْكَرْ » ، أى الصور السبع : إن الملك الساسانى يزدجرد الأول ، عند ولادة ابنه بهرام ، عهد به إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة ليقوم على تربيته ، وذلك عملاً بمشورة مستشاريه من المجوس ، رغبة منهم في إبعاده عنه ، كى لا يتخلق الصبى بأخلاق أبيه البغيض لهم . فسلمه النعمان إلى أربع نسوة اختارهن له فأرضعنه ولم يفطمنه حتى بلغ الرابعة من عمره . وبنى النعمان قصر « الخَوَرْنَق » لسكنى بهرام ، بناه له معمار من بلاد الروم اسمه « سِنِمّار » استدعاه إليه لشهرته فى بناء القصور ، فجاء قصراً منيفاً من أجل الأبنية . فأهلك النعمانُ سِنمارَ كى لا يعود لبناء مثله ويبقى القصر فريداً ـ وضرب العرب المثل بجزاء « سِنِمّار » .

وتعلم بهرام الكتابة والقراءة ، والتاريخ والعلوم ، والرماية والصول والجول ، والصيد والطرد ، فأتقنها جميعاً . واشتهر ببراعته فى صيد نوع من الغزلان كبير الحجم ، يعيش فى تلك الجهات ، ويسمى بالفارسية « كور » فعرف ببهرام كور ، وعربته العرب فقالوا بهرام جور[1] .

وذات يوم بعد ما بلغ بهرام جوز أشده وصار قوياً وشاباً فتياً ، ركب وخرج للصيد ، وكان فى معيته النعمان وابنه المنذر ، وإذا به يرى فجأة سحابة من التراب ترتفع من الأرض ، فاقترب منها ، ولما تبينها رأى فى وسطها أسداً قد هجم على غزال ، وامتطاه وراح يعمل أنيابه فى عنقه ليفترسه . فأخرج بهرام جور من جعبته سهماً مدبباً ، وضعه فى وتر قوسه ، وجذبه بشدة ، ثم أطلقه ، فانطلق السهم فى عنف وقوة وأصاب كلا الحيوانين تحت الكتف الأيسر ، واخترق قلبيهما وجسديهما ، ثم غاص فى الأرض من تحتهما وإلى جانبه سقط الحيوانان كل منهما جثة هامدة . فلما رأى العرب ذلك أعجبوا ببهرام جور أيما إعجاب ، وأمر النعمان المصورين أن يصوروا هذه الواقعة على حائط إحدى قاعات قصر الخورنق[2] .

وفى شكل (٢) نرى بهرام جور فى وسط الصورة على جواد وأمامه الأسد والغزال وقد أصابهما بسهم واحد[3] ، ويلاحظ ما أسبغه الفنان على هذه الصورة من جمال الحركة وروح الحياة . وهى من تصوير الفنان الإيرانى سلطان محمد ، من مخطوط المنظومات الخمس للشاعر نظامى محفوظ فى المتحف البريطانى ، كتب للشاه طهماسب بين سنتى ٩٤٦ و ٩٥٠ هجرية فى تبريز ، واشترك فى تصوير الصور التفسيرية التى به خمسة من كبار مصورى ذلك العصر هم : سلطان محمد ، ومظفر على ، وآقا ميرك ، وميرزا على ، وميرسيد على . وقد كان سلطان محمد من أساتذة الشاه طهماسب فى التصوير ، ويقال إنه خلف المصور بهزاد ، عميد فنانى إيران ، فى إدارة « الورشة » الملكية لفنون الكتاب .

(شكل ٢)

أتقن بهرام جور الصيد والطرد ، واعتاد أن يخرج إلى الأحراج المجاورة لصيد الوحوش والغزلان ، وكان أن شرب يوماً مقداراً من الشراب ، وخرج للصيد فقابل قطيعاً كبيراً من الغزلان ، وأصاب منها الكثير ، إلى أن رأى ظبياً جميلاً ، رشيق الحركات أراد أن يقتنصه ، فأطلق الظبي ساقيه الرشيقتين الطويلتين للريح يسابقها ، وأعمل بهرام جور مهمازيه فى جانبى الجواد فانطلق يجرى ، يطلب الظبي ، واستمر على ذلك مسافة طويلة إلى أن وصل الظبي إلى فوهة كهف ربض أمامها تنين هائل ، بشع الخلقة ذو رأسين عظيمين مدّ أحدهما إلى الظبي فابتلعه ، وكان التنين جائعاً وما كان الظبي إلا ليثير شهيته لافتراس الفارس القادم عليه بجواده ، فأخذ بهرام جور سهماً عريضاً من جعبته ، وأطلقه على التنين

(١) أنظر أيضاً الشاهنامة جـ ٢ ص ٩١

(٢) خمسة نظامى ص ٢٩٥ . ويلسون جـ ١ ص ٥٠ — ٥١

(٣) منقولة عن كتاب L. Binyon, The Poems of Nizámi, Pl. XV أنظر أيضاً A Survey of Persian Art, III, P. 1875 f; Martin, The Miniature Painting, I, 117; II, Pl. 138. Blochet, Muslim Painting, Pl. CXXII. Binyon, Wilkinson, Gray Persian Miniature Painting, P. 115

فأعماه ، ثم استل سيفه الكبير وضرب به التنين بين رأسيه فشطره إلى بطنه ، حيث وجد الظبي قابعاً ، وما كاد هذا يرى الحرية أمامه حتى قفز من بطن التنين وجرى إلى أن دخل الكهف ، وتبعه بهرام جور فوجد في الكهف كنزاً عظيما من قدور ملأى بالذهب والأحجار الكريمة ، مما استدعى نقله إلى قصر الخورنق على حمل ، أرسل عشرة منها إلى أبيه يزدجرد ، ووهب النعمان عشرة أخرى ، واستمتع هو بالباقي على أن ينفق منها بغير رقيب[1]

(شكل ٣)

وفي شكل (٣) نرى بهرام جور على جواد في وسط الصورة يرمي التنين بالنشاب ، وهذه الصورة[2] من مخطوط لنظامي محفوظ في المتحف البريطاني ومؤرخ سنة ٩٠٠ هجرية ، وهي من تصوير الفنان الإيراني قاسم علي ، أحد تلاميذ بهزاد في هرات ، وكان قاسم علي ينقل في صوره الكثير من موضوعات أستاذه ، فمثلاً هذه الصورة منقولة عن صورة مماثلة لها صورها بهزاد في مخطوط آخر لنظامي محفوظ بالمتحف البريطاني[3]

وبقي بهرام جور في الحيرة إلى أن مات يزدجرد ، وأزمع أعيان الفرس ألا يولوا من أولاده أحداً لما نالهم من ظلمه وجوره ، وأجلسوا على العرش رجلاً من بينهم يدعى خسرو ؛ فأيد النعمان وابنه المنذر بهرام جور وأمداه بالجند ، حتى أرغم الكارهين على تمليكه . واتفق معهم على أن يضعوا التاج بين أسدين جائعين ؛ فإذا انتشله من بينهما كان له ملك إيران ، وقد كان ذلك وقتل بهرام جور الأسدين ولبس التاج ؛ فكان خسرو أول من هنأ بالعرش[1]

ولما كان بهرام جور في الحيرة تجول ذات مرة في أنحاء قصر الخورنق ، ووجد قاعة مغلقة لم يدخلها من قبل ، فطلب مفتاح بابها ودخلها فإذا به يرى سبع صور ، لسبع أميرات ، من بنات ملوك الأقاليم السبعة ، وكن آيات من آيات الجمال ، فسار يلتفت للواحدة بعد الأخرى ويبتسم لها ، وفي غرور الرجل القوي المعتد بنفسه ، يظن أن ابتسامته حازت قبولاً لديها ، وأنها تومئ إليه إشارة إلى ذلك ، وما جاء إلى الأخيرة حتى افتتن بهن جميعاً وتملك قلبه حبهن ؛ فأغلق الباب وأخذ المفتاح معه ، وصار يخرج للصيد ثم يعود فيدخل هذه القاعة ليناجي حبيباته السبع ، وقد هام بهن هياماً شديداً

(شكل ٤)

وفي (شكل ٤) نرى بهرام جور في الركن الأيسر إلى الأمام ينظر إلى الصور السبع في قاعة بقصر الخورنق . وهذه الصورة[2]

(١) خمسة نظامي ص ٢٩٦ . ويلسون ج ١ ص ٥١ — ٥٥

(٢) منقولة عن Sakisian, La miniature persane, Pl. LIII, Fig. 93.

(٣) أنظر A Survey of Persian Art, V, Pl. 885 B

(١) أنظر أيضاً الشاهنامة ج ٧ ص ٧٨ — ٧٩

(٢) منقولة عن A Survey of Persian art, III 1875; V, Pl. 860

أنظر الدكتور زكي محمد حسن ، الفنون الإيرانية ، اللوحة ٣٩

فى مخطوط لنظامي كتب فى شيراز ومؤرخ سنة ٨١٣ هجرية ومحفوظ فى مجموعة جلبنكيان

ولما تولى ملك إيران ، واستتبت له الحال ، أرسل الرسل إلى الملوك السبعة يطلب من كل منهم يد ابنته ، وكان أن تم له ذلك فجئن إليه مع الكثير من الهدايا والتحف وتزوجهن جميعاً ، فأتاه معمار يسمى « شيدا » وعرض عليه أن يبنى له قصراً ذا سبع قباب ، ويفرش كل قبة بلون خاص بها ، ويرصعها بأحجار كريمة من لونها ، فقبل ذلك وبنى شيدا القصر ، وصار بهرام جور يقضى كل يوم من أيام الأسبوع فى قبة مع إحدى الأميرات ؛ فيوم السبت فى القبة السوداء مع الأميرة الهندية ، ويوم الأحد فى القبة الصفراء مع الأميرة المغربية ، ويوم الإثنين فى القبة الفضية مع الأميرة التترية ، ويوم الثلاثاء فى القبة الحمراء مع الأميرة الصقلبية ، ويوم الأربعاء فى القبة الزرقاء مع الأميرة الخوارزمية ، ويوم الخميس فى القبة ذات لون خشب الصندل مع الأميرة الصينية ، ويوم الجمعة فى القبة البيضاء مع الأميرة الرومية . وكان إذا ذهب إلى إحداهن لبس ثوباً من لون القبة إكراماً لها[1]

وفى (شكل ٥) يجلس بهرام جور فى القبة الصفراء مع الأميرة المغربية . وهذه الصورة[2] فى مخطوط لنظامى محفوظ فى متحف المتروبوليتان بنيويورك ، كتب فى هرات ومؤرخ سنة ٩٣١ هجرية ، وهى من تصوير محمود مذهب أحد الفنانين الذين انتقلوا من هرات بعد أن هاجمها الأتابك فى سنة ٩٤٢ هجرية وهاجر إلى بخارى حاضرة الأسرة الشيبانية فى ذلك الوقت

يقول الشاعر نظامى الكنجوى[3] إنه كان لبهرام جور جارية من التركستان الصينية ، جميلة كالبدر ، اسمها « فتنة » ، بها ألف نوع من المغريات ، لها وجه صبوح كالربيع البكر فى جنات عدن . أو هى — على حد قول الشاعر نظامى — قطعة من حلوى العسل مدهونة بالزيت ، أو صحن من القالوذج ، أو كليهما معاً ، فهى سمينة وحلوة . ولم تكن جميلة فقط ، بل كانت تجيد الغناء والعزف على الجنك[1] والرقص . وقد اعتاد بهرام جور أن يصطحب جاريته فتنة كلما خرج للصيد . وفى ذات يوم خرجا معاً فقابلا قطيعاً من الغزلان ، فأصاب منها عدداً كبيراً . كل ذلك والجارية تحتال بكل ما أوتيت من أنواع الإغراء والدلال أن تكبح نفسها من أن تعطيه ما يستحق من الإطراء والمديح . صبر الملك برهة إلى أن مرّ غزال عن بعد ، فالتفت إليها وقال لها ألا أيتها التترية ذات العينين الضيقتين ، لم لا تفتحين عينيك لترى ما أصيد ؛ ها هو ذا غزال آت فأخبرينى أى جزء من جسمه أصيب ؟ فالتفتت إليه الجارية بشفتيها الجميلتين فى حركة طبيعية — وقد كانت امرأة بكل معانى الكلمة — وقالت : إعمل عملاً يشرفك : سمّر حافر هذا الغزال فى أذنه بسهم واحد

(شكل ٥)

وقد فعل بهرام جور ذلك ، فأخذ حصاة وأطلقها على أذن الغزال فرفع المسكين حافره ليحك أذنه ، وفى ذات اللحظة أطلق الملك سهماً سمّر به الحافر والأذن إلى رأس الغزال ، فسقط هذا على الأرض . والتفت الملك إلى الفتاة التترية وقال : لقد نجحت فماذا ترين فى ذلك ؟ فقالت : لقد اعتاد الملك عمل ذلك فأجاده ، وأصبح عمله لا يتطلب منه أية قوة خارقة . فاغتاظ الملك لهذه الإجابة ، وأمر ضابطاً أن يقتل الفتاة ، فأخذها الضابط إلى منزله لينفذ فيها أمره . ولكن الفتاة نظرت إليه بعينين دامعتين متوسلة وأفلحت فى أن تقنعه بأن يبقى على حياتها ، واتفقا على أن تعمل

(١) خمسة نظامى ص ٢٩٧ وما بعدها . ويلسون ج ١ ص ١٠٦ وما بعدها . وانظر أيضاً Franz von Erdmann, S. 12 — 16. و L. Binyon, P. 27 — 29

(٢) منقولة عن Sakisian, Pl. LXXIII Fig. 127 . وانظر A Survey of Persian Art III 1869. والدكتور زكى محمد حسن : التصوير فى الاسلام ، اللوحة ٤١

(٣) خمسة نظامى ص ٣٠٤ وما بعدها . ويلسون ج ١ ص ٨٢ وما بعدها

(١) الجنك Harpe ، وهو آلة موسيقية كبيرة ذات أوتار .

فى منزله خادمة حتى لا تثير الشبهات . وكان فى أعلى المنزل منظرة عالية تصعد إليها ستون درجة ، وقد اعتادت الفتاة كل يوم أن تحمل عجلة صغيرة وُلدت حديثاً وتصعد بها الستين درجة إلى المنظرة، فكانت قوتها تنمو تدريجياً بما يتناسب مع نمو العجل، إلى أن صارت بعد ست سنوات بقرة كاملة النمو دون أن تجد مشقة فى حملها . وذات مساء أعطت الفتاة الضابط بعض لآلئها ، وطلبت منه أن يهيئ بثمنها مأدبة فاخرة ينتهز فرصة مرور الملك للصيد ويدعوه إليها . ففعل الضابط ذلك ، وجاء الملك إلى المأدبة وجلس فى المنظرة ، فصعدت الفتاة تحمل البقرة على كتفيها لتحلب لهم من لبنها أثناء الطعام ، فنظر إليها الملك وقال : لقد تعودت حملها ، فأنت الآن لا تحتاجين إلى قوة خارقة لعمل ذلك . فقالت له الفتاة : وهل كان الغزال يحتاج إلى قوة خارقة ؟ فعرفها الملك وقام إليها فرفع نقابها واحتضنها ، ولم يفصلهما بعد ذلك سوى الموت

(شكل ٦)

وفى شكل (٦) بهرام جور على جواد فى الوسط وقد أطلق سهماً أصاب غزالاً أمامه فسمر حافره بأذنه . وإلى يسار بهرام جور نرى « فتنة» على جواد وفى يدها الجنك . وهذه الصورة[1] من مخطوط نظامى للشاه طهماسب السالف الذكر ، صورها مظفر على أحد تلاميذ بهزاد

(١) منقولة عن L. Binyon, Pl. XVI وانظر Arnold, Painting in Islam, p. 141 و Binyon-Wilkonson-Gray, p 115 و A Survey of Persian Art, III, 1878 L.

وفى شكل (٧) صينية من الفضة المذهبة عليها رسم بهرام جور يصطاد الغزال وهو جالس على هجين يرتدف جاريته المغنية وهذه الصينية[1] من عصر الإنتقال من الفن الساسانى إلى الإسلامى . وهى محفوظة فى متحف الإرميتاج بالروسيا

(شكل ٧)

وفى شكل (٨) صحن من الخزف[2] من صناعة قاشان فى القرن السادس الهجرى (١٢ الميلادى) مرسوم بالألوان فوق اللعان ، به صورة بهرام جور وقد أصاب الغزال فسمر حافره بأذنه بسهم واحد ، وهو راكب على هجين ويرتدف جاريته المغنية ممسكة بالجنك ، وقد تتبع الفنان فى رسمه قصة بهرام جور والجارية كما نظمها الفردوسى فى الشاهنامة[3] وهى تنتهى بأن يتناظ بهرام جور من إحدبتها فيلقيها على الأرض ويطأها بالهجين إلى أن تموت ونرى فى هذه الصورة أن الفنان لم ينس تصوير الجارية وهى على الأرض والهجين يطأ صدرها ، وقد كان لبهرام جور — كما وصفه الفردوسى — «هجين مسرج بسرج منطى بالديباج له أربعة رُكب : ركابان من الذهب وركابان من الفضة ، فيركبه ويرتدف الجارية وفى حجرها الجنك » . أما فى قصة الشاعر نظامى فيركب كل منهما جواداً كما رأينا ذلك فى الصور السابقة

(شكل ٨)

(١) منقولة عن A Survey of Persian Art IV Pl. 229. A و Sarre, p. 69; Pl. 106 وانظر Orbeli et Trever, Pl. 11

(٢) منقولة عن A Survey of Persian Art, II, 1602, V, Pl. 672

(٣) الشاهنامه جـ ٢ ص ٧٦